إشكالات في واقع الدعاة !

بقلم

خباب مروان الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أمّا بعد:

فإنّ للدعاة إلى الله في عصر التقنية والثورة المعلوماتيَّة جهد مذكور، وفاعليَّة حقيقيَّة، فها نحن اليوم نعيش عصراً ينجم عنه كثير من الأفكار الدعويّة العملاقة؛ رُغم العقبات والأشواك التي تُواجه الدعوة ورجالاتها ومؤسّساتها.

وقد كتب الله تعالى الهداية والاستقامة لفئام من الناس بسبب الجهود الدعويّة المُضنية؛ وآتت الدعوة أُكُلَها في كثير من أقطار الأرض؛ حتّى أنّ الدعوة الإسلاميّة لم تكتفِ بواقع المسلمين؛ بل شهدناها دخلت للبلاد غير الإسلاميّة فنلحظُ فيها يومياً إسلام المئات في تلك البلاد، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ دولة الإسلام ليست قائمة؛ وحُماة الدين من أهل العلم أقليّة، ومؤسسات الدعوة إلى الله قليلة ونادرة؛ وحملات التشويه والتشكيك بالإسلام أكثر من أن تُحصر، وأوضاع المسلمين الكارثيّة وكثرة الحروب والقلاقل في بلادهم؛ وهم يعيشون في بلادهم بأمنٍ ورخاء، ولديهم كافّة مُنتجات الحضارة العمرانية، وأدوات النهضة الصناعية والاقتصادية، وتتراجع عمران المعابد الكنسيّة من العقائد الباطلة؛ ومع ذلك كلّه يزداد الإقبال على الدين الإسلامي، ويزداد المرتادين للمساجد؛ ويكثر الطلب على المصاحف، وكتب الحديث الشريف، والفضل الله تعالى وحده.

غير أنّ من يجني الثمار في الحقل الدعوي؛ وساحة العمل الإسلامي؛ سيقع لا مُحالة في بعض التقصير أو القصور، فهو عُرضةٌ للخطأ والزلل أثناء الممارسة الدعوية، وهذا يستدعي وجود مكاشفة ذات شفافيّة لصقل المرآة الدعويّة؛ وتفعيل مبدأ النُّصح؛ لأنّ النقد الداخلي، مع حمل همّ النُّصح الصادق، ابتغاء ترتيب البيت الدعوي؛ من لوازم البقاء والنقاء والارتقاء.

شَهِدَ الله ما انتقدتُك إلاّ * طمعاً أن أراك فوق انتقادِ

وكفى المرء رفعةُ أن يعادى* في ميادين مجده ويعادي

فالقصد النصيحة المستوحاة ممّا صحّ في الحديث عن رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، بقوله: "الدين النصيحة"، وما جاء في الحديث الحسن أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: "المؤمن مرآة أخيه المؤمن، المؤمن أخو المؤمن حيث لَقِيَه يكُفُّ عنه ضَيْعَتَه ويَحوطه من ورائه".

فكونُه مرآته؛ إن رأى خطأ فيُصحّحه بالنصيحة؛ ملتزماً بما صحّ عن رسول الله حين ينتقد مسلماً؛ فيقول فيما صحّ عنه:" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا".

والمؤمن يفرح بنصح أخيه ويدعو له؛ كما ثبت عن عمر بن الخطّاب أنّه قال:(رحم الله امرءً أهدى إليّ عيوبي)؛ ومن منّا من يسلم من الخطأ والعيب والشطط؟!

فاللهم عفوك ومغفرتك ورحمتك وهدايتك.

لعلّ من أبرز الإشكاليات في الواقع الدعوي:

1. ضعف التأصيل العلمي وإدراك أساليب الدعوة

يظهر ضعف التحصيل العلمي تأصيلاً من خلال كلمات بعض المتصدّرين للدعوة في لقاءاتهم العامة؛ مِمّا يُحرج المُستضيفين له؛ خاصّة إذا قامَ بعرض الأحكام الشرعيّة بأسلوب خطابي وعظي تأثيري، غير أنّ الحكم الشرعي ليس كما يعتقده ذلك الداعية، بل قد جانب فيه الصواب!

لقد جنى على ساحة الدعوة بعض الدعاة مِمّن يرزق الواحد منهم قدرة على التأثير الشبابي؛ ولربّما كان مثلهم في طريقة تفكيرهم وحياتهم العامّة قبل الهداية، ولكن ينقصه الكثير من أساليب الدعوة، وهو بذاته لم يدخل أجواء صناعة الداعية الفعليّة؛

إذ لم يمتلك الزاد العلمي بالتأصيل العلمي الذي يُمكّنه من ضبط ألفاظه ومُصطلحاته وإجاباته واستشاراته؛ ولم يعش أجواء الدعوة سنينَ عدداً قبل تأهلّه للدعوة إلى الله؛ ولعلّ من أبرز ذلك شهادة أشياخه وأهل العلم له بذلك، ودوام تواصله معهم !

قد يبدأ بعض الدعاة الشباب بالتأثير على التجمُّعات الدعويّة من خلال مُخيّمات أو مراكز أو نوادي وغيرها؛ ويكون لهم حظٌّ ونصيب من حفظ قرآن، ودراسة متن علمي على بعض العلماء؛ ثمّ يرون تعلُّق بعض الشباب بهم، وتجمُّعهم عليهم، وازدحامهم بعد الانتهاء من مُحاضراتهم وملتقياتهم؛ ويَعْظُم في قلبِ الواحد منهم كثرة متابعيه وجمهوره؛ فيُقلّل الزاد في الأخذ عن العلماء، ويستغني عن الرجوع إليهم، وسؤالهم في أعمالهم الدعويّة واستشارتهم فيها؛ فتحصل الجفوة والفجوة المفتعلة من أولئك الدعاة ويبتعدون رويداً عن أهل العلم.

ولا أعجب من أن يُدعى بعضهم إلى لقاء أسبوعي خلال سنة يحضرونه عند بعض أهل العلم؛ ليستزيد علمهم وتكثر بضاعتهم التأصيليّة؛ فيحضرون ثم يتقلّص العدد ويتناقص بحجّة الانشغال باللقاءات الدعويّة!

مع أنّهم لو لازموا عدداً من أهل العلم المعتبرين، لأخذوا دروساً عمليّة في حضورهم دُروسَ شيوخهم الكبار علماً وسناً، وفي هذا تربية من الشيخ لنفسه على بقاء الطلب، وتربية لطلبته على أنّ المرء لا يزال يتعلّم ما بقي حياً.

إنّ حالة الانتقاص العلمي وما يُقابلها من الازدياد الدعوي؛ مؤثّرة للغاية على كثرة وجود الأخطاء في مسيرة الدعوة، فعلى الداعية أنّ يعلم عمق الارتباط والصلة بين الدعوة والعلم؛ وهي منهجيّة لا تحتمل المُجاملة؛ وقد قام أهل العلم بالتنبيه عليها؛ ومنهم الإمام ابن القيم إذ يقول في مفتاح دار السعادة : (1 / 15): (وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي

يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي).

2. ضعف علائق دعاة السُّنّة بمختلف المشارب

من أعظم ما يُزيل الظنون السيئة بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية بمختلف توجّهاته: اللقاء الأخوي الإيماني؛ حيث تجتمع الكلمة، ويذوب الجليد المُصطنع بيهم، ويحزن الشيطان الذي ينزغ بينهم ويُحرِّشُ بين أفئدتهم.

إنّ كرة الثلج التي غطَّت بعض الدعاة عن بعض جعلت طريقة تفكير كل واحدٍ منهم محجوبة عن مرأى العين؛ فكَثُرَت الظنون والأوهام والتُخرّصات، وينزعه اللقاء الإيماني الأخوي النابع من حرارة اللقاء ونبع المودة؛ فسيتضاءل حجم تلك الكرة الجليديّة!

إنّ تكافت بعض العاملين للإسلام؛ بحاجة لعلاج؛ فما أكثر انصرافهم عن الإصلاح والتغيير، والانشغال ببعضهم؛ فيصابون بتراجع وانصراف وتكافت، بديلاً عن التكاتف الدعوي!!

لو تعاون كل من عمل في حقل الدعوة والعمل الإسلامي فيما بينهم في إنجاح أي مشروع يدعو للبر والتقوى وهم على ثغور الدعوة، وتواصوا فيما بينهم على ذلك كما يتواصى أهل الفجور والفساد الفكري؛ لوجدنا خيراً عظيماً من إصلاح الحال، وتغيُّر الواقع في تحسن كثير من أوضاع مجتمعاتنا الإسلامية.

وهذا من بركات خيريّة الأمّة حين يجتمع العاملون للإسلام للعمل بما يُرضي الله تعالى؛ فإن عجزوا عن الانصهار داخل عمل مُوحّد، وشقّ ذلك عليهم؛ فبالتنسيق والتعاون والتكاتف بينهم على البر والتقوى، وهي الفريضة الغائبة في واقع العاملين

في الدعوة؛ ليحصل من جرَّاء ذلك تعزيز ذلك ظهور روح التكامل لا التآكل، ومبدأ التنسيق لا عقليَّة التفريق.

أمتنا اليوم تعيش في أزمات متتابعة بل حرائق تشتعل في عدد من بقاعها وإن العاقل يعلم أن هذه الحرائق لابد لها من مئات الدعاة الصادقين لإطفائها، وأن رجال المطافئ لا بد أن يتدرعوا بما يحميهم من أن تلتهمهُم الحرائق الملتهبة؛ ليلتقي الرجالات الدعويّة لمعالجة الأزمات، وإطفاء الحرائق، ونزع فتيل الشقاق؛ وتعاونهم فيما بينهم على ذلك، وهو الذي سيُفيدُ الأمّة تجاه الأحداث التي تعصف بها من كل حَدبٍ وصوب.

وبقدر ما يمتلكُ الواحد منهم خبرة وعلماً فلن يكون قادراً على المعالجة الفردانيّة؛ إذ لن يُغيّر واقعاً تشترك الأمم على إفساده، والواجب نقله من الأُحاديّة الشخصيّة إلى الوحدويّة الدعويّة، وألا ينشغلوا ببعضهم من التراشق والتنازع والتقاطع؛ وهو ما يستغربه المرء من وقوع تصرفات بعض الدعاة على القنوات الفضائيَّة؛ إذ يتحدَّثون على القنوات بملء الفم فيما بينهم بلغة فيها طعن وإسفاف، منقلباً النقاش من كونه فكرياً أو منهجياً لشجارٍ شخصيٍ بين الطرفين بحجَّة كشف الحقيقة، وتمنيت لو قعد أولئك الأشياخ في بيوتهم؛ لأن تصريحاتهم قد صبّت الزيت على النار وزادوا الواقع تعقيداً ولم يصلحوه، مما يؤثّر على المتلقي الدعوي من حيث سقوط أولئك القوم من عينه؛ أو تأثّرهم بطريقتهم في النقاش؛ وفي كلتا الحالتين تكمن الخسارة!

ماذا لو تنامت علائق الدعاة وقاموا بمعالجة جادّة عمليّة بعيداً عن العلاج القولي الورقي لأمراض منتشرة بينهم كـ:

سوء الفهم، ضيق الأفق، التعصُّب، تضخيم الخلافات، سوء الظن، قلّة الاعتذار للمخالف، ضعف استشعار نتائج التفرُّق، البغي!

إنّ كلُّ هذه الأشياء ستجتمع تحت إطار خطير للغاية وهو التفرُّق في الدين !

مع أنّ الدعاة جميعاً يعلمون أنّ الدين الإسلامي ما أتى إلاّ ليجمع الأمَّة على الحق؛ ولا تتفرَّق عنه إلى الباطل.

فقد أتى بتوحيد المُرسِل، وتوحيد المُرسَل، وتوحيد كلمة أمّة الرسالة.

ودين الإسلام دين اتّفاق وائتلاف؛ لا تفرّق واختلاف.

وبهذا جاء الحثُّ على إقامة الدين؛ وعدمّ التفرّق فيه وعنه، فقد قال تعالى: {أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه} مع أنّ الآيات والبينات ما أتت إلاَّ لتكون سبيلاً للتوحد والالتئام والالتحام ورص الصفوف وعدم تفرقتها حيث تفترق القلوب..!!

ها نحنُ نقرأ عن الأمم السابقة من قبلنا وهي أمم كتابيَّة؛ آتاها الله الكتاب للهداية؛ لكنَّها تفرَّقت وتشظَّت وافترقت؛ وليت ذلك التفرق نَجَمَ عن الجهل؛ لهان الخطب؛ لكنَّه نشأ بعد العلم ومجيء البينة، ونلحظُ ذلك في عدّة آيات وسور، منها قوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: 4 ، 5] وقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31–32]؛ ولهذا نهانا تعالى عن مشابهتهم في التفرق، فقال : {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 105 – 108].

إلاَّ أنَّ أمّتنا اليوم وقعت فيما وقعت بها الأمم السابقة فتفرّقت في دينها بعد أن عَهِدَ الله – عزَّ وجل – إليها آياته وحججه وبيّناته، وليس أسوأ من ذلك افتراق دعاتها، ومن سوء التفرُّق أنّه يؤدي في بعض الأحوال لمُفارقة الدين؛ أو أخذ شيء منه دون شيء!

ومِمّا يُشير لذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وقد قرأ حمزة والكسائي آية (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)=(فَارَقُوا) بِالْأَلِفِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: مِنَ الْمُفَارَقَةِ وَالْفِرَاقِ!!

ومن تأمَّل في مآلات التفرّق والاختلاف بعد العلم و البيّنة والآيات وجد أنّ أغلبها بسبب البغي الذي نتج عنه = الظلم، و الكبر، و الحسد ، و الحقد، والتعدي.

فقد قال تعالى: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) [آل عمران: 19] وقال تعالى: (وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) [الجاثية: 16 ، 17] وقال تعالى: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) [البقرة: 213] وقال تعالى : (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)[الشورى: 13 – 15].

لقد ذكر الله تعالى لنا أنموذجاً في القرآن الكريم عن أحد الأنبياء من أولي العزم من الرُّسل موسى عليه الصلاة والسلام؛ فقد أحبّ الخير لأخيه هارون، فشفع له حتى جعله الله نبياً؛ فقال تعالى عن موسى: {وكان عند الله وجيهاً}؛ فهلاّ استفاد الدعاة من ذلك حب الخير الدعوي لإخوانهم؛ وابتعدوا فيما بينهم عن التهارش والتحاشُد للتحاسد!

3. عقبات في تأثير العظات !

من خير ما يجلو صدأ القلوب، ويذهب أمراض النفوس؛ أن تتأثر أرواحنا لا أجسادنا بسياط المواعظ التي يجب أن يكون لنا منها حُصّة الأسد في زمن الغفلة.

إن الوعظ الديني من أكثر ما تحتاجه الأمَّة اليوم، لانغماسها في الدنيا، وبُعدها عن الخطاب الإيماني، واهتمامها بالقضايا الفكرية أو الثقافيّة.

ومن خير ما تُوعظ به القلوب وتُحرَّك به العقول؛ بعث روح القرآن في الأمة ووعظهم به، فالله تعالى يقول:{يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم}، والله تعالى ربط الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فقال: {ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} وهذه آية جليلة "جمعت أصول الاستدلال العقلي الحق: البرهان والخطابة والجدل" كما يقول الطاهر بن عاشور، والملحظ في الموعظة أن تكون حسنة، و"ليس كل موعظة حسنة" كما يقول الإمام ابن القيم في [مدارج السالكين: ٣-١٥٧]

إنّ الوعظ كلمة عظيمة وموقف شريف، فالله تعالى يعظ الخلق فيقول: {يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين}؛ وقد فتح الله على الأنبياء والرسل القيام بهذه المهمّة والوظيفة سواء آمن بهم قومهم أو لا، ومن حرص أحد على وعظ قومه؛ قال له قومه: {سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين}؛ ومن تدبر سورة هودٍ وما فيها من قِصَصِ خمسة من الأنبياء والرسل بُعثوا إلى أقوامٍ لكل منهم حضارة عريقة بالدعوة إلى الله؛ أتت الآية في نهاية السورة لتقول: {وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين}.

وسار نبيُّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم على درب الأنبياء والرسل؛ وحثّه الله على الوعظ فقال:{قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفُرادي ثمّ تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة} فموعظته تحثُّ على التّفكّر؛ التي تستدعي مِمّن سمعها التأثُّر؛ كما قال تعالى: {فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً} ولهذا كان يقف رسول الله مواقف الموعظة فيعظ الناس ويُذكّرهم بالله حتّى لامست موعظته قلوبهم؛ فقد صحّ في الحديث عن العرباض بن سارية قال: "صلى بنا رسول الله، ثم أقبل علينا بوجهه فوعظ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب".

فإذا كان ربُّ العالمين يعظ عباده، والأنبياء كذلك، والقرآن الكريم بذاته موعظة؛ فإنّ من قام بالوعظ فقد أوتي مهمّة شريفة جليلة القدر؛ ولهذا ذكر الطوفي الوعظ من علوم (القرآن) في كتابه (الإكسير في علوم التفسير) وقال:" ويصلح هذا متمسكا للوعاظ على شرف علمهم ويؤكده فعل الأنبياء مع الأمم، والسلف الصالح في عصرهم".

غير أنّ هنالك كثيراً من الممارسات الخاطئة التي يقع فيها بعض الوعاظ وقد لا يشعرون وقد يشعرون!

ومنها:

- تصدّر الجُهّال في وعظ الناس وقلّة الأخذ على أيديهم؛ مما يجعلهم يقولون ويتصرفون بأشياء لا تليق بمهنة الوعظ الشريفة، مع الإكثار من الكلام المُرسل الإنشائي، وتكرار الألفاظ بدون المعاني الجوهريّة، وقلّ أن يؤخذ على يد هؤلاء ولو من تعزير العلماء الربّانيين؛ لهذا يقول أحد أكابر الفقهاء العلاّمة الشربيني في مغني المحتاج(4/212): "ولا يأمر ولا ينهى في دقائق الأمور إلا عالم، فليس للعوام ذلك، ويُنكر على من تصدى للتدريس والفتوى والوعظ وليس هو من أهله".

- إطالة الموعظة مع تنبيه الواعظ في بداية حديثه أنّه لن يُطيلها بل سيجعلها دقائق معدودة؛ فيُطيل كثيراً على الحضور؛ فينسحبون رويداً رويداً؛ وكم شاهدنا من شخص ذكر أنّ موعظته ستكون قصيرة فقاربت نصف ساعة !

والذي ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما عند أبي داود في سننه عن جابر بن سمرة قال: "كان النبي صلّى الله عليه وسلّم لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هي كلمات يسيرات" ومن فقه الصحابة في عدم الإطالة على جماعة المسلمين ما قاله الصحابي الجليل عمر بن الخطّاب:" أَيُّهَا النَّاسُ لا تُبَغِّضُوا اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ ،

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : يَكُونُ الرَّجُلُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُصَلِّي بِهِمْ ، فَلا يَزَالُ يُطَوِّلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُبَغِّضَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ فِيهِ ، أَوْ يَجْلِسَ قَاصًّا فَلا يَزَالُ يُطَوِّلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُبَغِّضَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ فِيهِ " .

- ضعف تطبيق الواعظ لموعظته، فقد يعظ الناس بتعظيم الله، لكنه من أكثر الناس تملقاً لحُكّام السوء وتعظيمهم، فكيف نقبل وعظه؟ وآخر يعظ الناس بضرورة العمل بما يعلمون وهو يظلم الفقراء ويأكل حقوقهم، ويتحدث عن خطر الظلم وهو من أكثر الناس ظلماً لعمَّاله وخدمه، وآخر يتحد عن الزهد والورع؛ ومن يُخالطه يعرف أنّه من أكثر الناس حباً للدنيا وتقحماً لمهالكها!

لهذا كان يخشى كثير من العلماء وعظ الناس؛ لخشيتهم من التقصير فيما يقولون؛ ولهذا كتب العلاّمة الغزالي لبعضهم: أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلاً له؛ لأن الوعظ زكاةٌ نصابه الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يُخرج الزكاة؟! [طبقات السبكي: 6 / 217]

- حاجة الواعظ لتذكر الإخلاص دائماً والعمل لمرضاة الله حتّى يلقى الناس كلامه بالتطبيق والتنفيذ؛ فالله تعالى يقول: {ولو أنّهم فعلوا ما يُوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً}.

قال الراغب: "حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ويبصر ثم يبصِّر ويهتدي ثم يهدي ولا يكون كدفتر يفيد ولا يستفيد وألا يجرح مقاله بفعاله والا يكذب لسانه بحاله".

وقال بعض السلف: "إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تمادياً في الضلال" [الفتاوى الكبرى للهيتمي : ١/ ٢٠٤]

- تغليب أحد جانبي الترغيب والترهيب على الآخر؛ فبعض الوّعّاظ لا يتحدث إلا عن الجنّة وعظيم رحمة الله، والأجور والحسنات، وآخر عن النار، وغضبه على أهل الظلم والفجور، وخطر السيئات، وهذا ليس من منهج القرآن في شيء بل القرآن في عدّة مواطن يوازن بين الترهيب والترغيب، والتذكير بالنعيم والجحيم.

- أن تكون الموعظة صورة مثاليّة عن واقع سلفنا الصالح في العبادة والعمل الصالح، حتّى يُقدّم الواعظ للمستمع أفضل سِيَرِهم في ذلك، فتارةً لا يصدّق بعضهم ما كانوا يعملون؛ وتارةً يستبعدون وقوع الخطأ منهم، وتارةً يستقلُّون ما يفعلونه من عبادات تجاه ما يفعله السلف الصالح فيُصابوا بالإحباط.

بل تنقل لنا بعض المواعظ عن بعض ما يقوم به بعض الزهّاد والعُبّاد والمتنسّكين من عبادات فيها تشديد على النفس ومبالغة تُخالف هدي النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ وكان الأولى ربطهم بهديه صلّى الله عليه وسلّم؛ بدلاً من أعمال تُخالف هديه.

إنّ ذكرَ سيرة السلف الصالح لتشجيع الناس على فعل الخير= من المحامد بل هو مطلوب بقدره؛ لكنّ مجموع الوُعّاظ أنفسهم لا يستطيعون أن يكونوا في عصرنا أفضل من طريقة عبادة السلف الصالح؛ فليذكر الواعظ عَقِبَها للناس ما هم قادرون على فعله من الطاعات؛ وليُحذرّهم من طرق المعاصي ويذكر لهم الحلول والبدائل الشرعيّة وخُطوات إعانة الناس على فعل الفضائل واجتناب الرذائل.

- يقلّ عدد الوُعّاظ من أهل العلم فكيف إذا ازدانت المجالس بدخول أهل العلم في مجال الوعظ فلوقعِ كلامهم أثر في قلوب الناس وتذكيرهم بالله والدار الآخرة؛ فاغتنامهم لذلك معين خيرٍ لأن يكتب الله الهداية على يدهم؛ خاصّة إذا علمنا أنّ

كثيراً من عامّة الناس يكون التزامهم بسبب موعظة أكثر من دروس علميّة، أو نقاشات فكريّة.

– يلتزم بعض الشباب على طريق الهداية؛ ويستفيدون من مواعظ الوّعاظ؛ فعادة لصوت الوعظ أثره في القلب؛ لكنّ تأثيره مرحلي؛ والواقع أن هنالك تقصيراً من الوعّاظ في ربط من اهتدى بأهل العلم ليتعلّم المرء منهم أمور دينه؛ بل يُحاولون تعويد المهتدي وتدريبه للقيام بمهمّة الوعظ من جديد، وكان الواجب أن يكون هنالك بعثاً لإفادة المهتدين الجدد بالعلم الشرعي؛ فالأحكام الشرعيّة بينها والوعظ صِلَةُ وعلاقة؛ وكثير من آيات الأحكام قد خُتِمَت بالمواعظ.

– يتفنّن بعض الوُعّاظ بكثرة القصص حتّى تكون جوهر محاضراته دائماً؛ وليت ذلك يكون من قبيل القصص الثابتة، فاستخدام القصّة في الدعوة في موطنها المناسب أسلوب دعوي رائع أتى به القرآن الكريم فثلث القرآن قصص ذات عِبَر؛ لكن من المهم الاستفادة من منهج القرآن في إيراد القصص للتذكير.

مِمّا نُقِلَ عن الإمام أحمد قوله:" أكذب الناس القصاص والسؤال، وما أحوج الناس إلى قاص صادق صدوق؛ لأنهم يذكرون الموت وعذاب القبر" قيل له: أكنت تحضر مجالسهم؟ قال : " لا " .

طالما قام بعضهم فألقى كلمة أو درساً عَقِبَ الصلاة أو في تجمُّع دعوي، فيحكي قصص ذات خيالات، وحال من يستمع لها إن كانت لديه ذرّة من عِلْمٍ أن يُصاب بالوجوم والاندهاش، فأكاذيب تُروّج على أنّها حقائق، حتّى ما يُدّعى أحياناً أنّه إعجاز علمي هو في الحقيقة لا علم ولا إعجاز؛ وليس الاعتراض على المصطلح فالإعجاز العلمي في القرآن والسنّة حاصل؛ لكن هنالك غلو وقع به بعض الدعاة،

حتّى روّجوا لقضايا إعجازيّة كانت عارية عن الصحّة والبرهان؛ بل ما صاروا يتعاملون مع الآيات والأحاديث في مُحاضراتهم إلاّ من هاته المنطلقات...

ذلك كلّه قد لا يلتفت لسلبياته عدد من الدعاة فالحضور الكثيف والجمهور العريض الواسع؛ يؤثّر على نفسية المُلقي؛ خاصّة وأنّ عامّة الناس تستروح لذكر هذه الأشياء؛ كما بيّن الإمام ابن قتيبة بقوله عن أولئك القُصّاص: "فإنهم يُميلون وجوهَ العوام إليهم، ويَستدِرُّون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعودُ عند القاص ما كان حديثه عجيبًا خارجًا عن فِطَر العقول، أو كان رقيقًا يُحزن القلوب، ويَستغزِر العيون".

ماذا لو علم الجمهور حين يكبر سنُّه ويزداد علمه أنّ كثيراً مِمَّا قيل لا صحة له؟

وكيف سيكون ذلك الداعية في عينه بعد معرفة كثير من الأغاليط التي كانت تسوّق باسم الدعوة؟

4. هزل الدعاة !

يرى كثير من المتابعين للبرامج الدعويّة أنّ المُزاح والمرح وغِياب الجِديّة قد غلب على كثير من العاملين في الحقل الدعوي؛ حتّى صارت أحاديثهم تأخذ طابع إضحاك الغير فحسب، مع وقوع بعض الدعاة بنوعُ من التنازل والتساهل وصارَ منطق حديثهم فيه ابتذال لا يليق؛ بله العفويّة في طريقة حديثهم واستخدام بعض العبارات التي تحتاج لضبط وذوقٍ أياً كانت جهة التواصل!

بعض الدعاة لهم وجهة نظر أنهم يُبعدون عن أنفسهم تهمة العبوس في وجه الناس، وتقطيب الجبين، ودوام الحديث عن الترهيب فحسب؛ فننقلهم إلى الترغيب خاصّة مع كثرة الهجمات على الدعاة والمُصلحين؛ مِمّا يتطلّب أثناء مخاطبة الجمهور شيئاً من

التبسّط معهم، ولعلّ كثيراً من نُقّاد الدعاة يرون الأمر مُغايراً لما يرسمونه في أذهانهم بعد حملات التشويه لهم!

إنّ ابتسامة الداعية؛ وبسط وجهه، وسماحة خُلقه، وترطيب محاضرته بموقف لطيف يُضفي على أجواء الكلمة أو المحاضرة خروجاً من الرتابة؛ من الأساليب النافعة، لكن لا على أن يغلب على دعوته كثرة المزاح؛ فمن كثر كلامه مع مزاحه كثر غلطه؛ والجمهور الدعوي عادّة ما يتقلّب مزاجه بسرعة؛ فمن تابعّ الداعية بعاطفة مادحاً له؛ قد ينقلب عليه بعاطفة أخرى قادحاً فيه لكلمة لم يُحسن التعبير عنها؛ ولهذا فإنّ غاية الناس رضا لا تُدرك؛ وليس صحيحاً أنّ رضاهم غاية قد تُدرك!

على الداعية الذي أراد الخير من خلال تبسُّطه الزائد في مزاحه؛ لا يؤخذ كلامه بعين الاعتبار؛ ولا يُنظر إلى ما يدعو إليه بجدّيّة ومسؤولية، بل يُتابع لأجل البحث عن مقاطعه الترفيهيّة فحسب؛ والمفترض أنّ الداعية لا يرغب أن يكون حظُّ متابعيه ذلك الأمر فقط.

5. تسويق ينقصه التطبيق!

بعض من يقومون بالعمل الدعوي تستخدم صورته شركات إعلانيّة ليكون مادة إعلانيَّة تسويقيّة، تقدم فكرتها، ثمَّ تمارس حياتها بشكل آخر غير ما كانوا يتحدثون به في برامجهم من جماليات الأخلاق وسمو الآداب الإسلامية.

إنّهم بنظر الكثيرين قدوات في المجتمع، فيستمعون لبرامجهم، ويُتابعون حساباتهم الاجتماعيّة، وينشرون ما قاله الداعية عبر التقنيات الحديثة المعاصرة، ولكن ما قاموا به من تذكيرهم الآخرين بفضل الخلق الحسن في التعامل مع الناس؛ هل تُراهم يُطبّقونه في واقع حياتهم؟!

يقول بعضهم نرى داعية بطلّة بهيّة وابتسامة مشرقة، أو نرى الآخر في صورة من التأثر والزهد وسكون النفس، لكنّ أثناء التعامل معه يختلف الحال، فنرى فيه غرائب الأطباع، ونزق الخلق، ولؤم النفس، والأنانيَّة المفرطة، والغرور والتماهي مع الذات، والكِبْر، وحينما تسمع هذا قد تظنّ ذلك تحاملاً على الداعية؛ ولكن ما إن تسمع هذا من عدّة مصادر وأعراق وأجناس؛ نعلم فعلاً أنّ هنالك فجوة بين التنظير والتطبيق.

إنّها أزمة قد تجعل بعضهم يُصاب بالفتنة في دينه؛ حين يعدّ ذلك الشخص قدوة له وأنموذجاً في الخُلُق؛ وبعد أن يُعامله أو يخوض معه في قضايا خاصّة؛ يجد خلاف ذلك؛ مِمّا يؤدي ببعض الناس لاتخاذ موقف مضاد للدعاة بشكل عام؛ فليس الكل يستطيع الفصل بين داعية أساء وداعية أصاب، أو بين خطأ الداعية، وأصل الدعوة الدينية الإسلامية.

6. دعوة مُترفة

الدعوة إلى الله جهد عظيم، وشاق، ومُتعب ومُضنٍ ومُنهك؛ ولهذا يتطلّب قياماً بالليل وعبادة، وانتصاباً في محراب العبوديّة؛ ليكون ذلك مُعيناً للداعية على القيام في النهار للدعوة إلى الله تعالى، والصبر على الأذى، وهذا يتطلبّ التحمُّل للمصاعب والمشاق والصعوبات والعراقيل التي تواجه الداعية إلى الله.

نلحظ أنّ بعض العاملين في النطاق الدعوي يعيشون حياة مُخمليّة رِخوة، تُعنى بمزيد من الترف والتلذذ بمتاع الدنيا؛ وطلب الكثير من الامتيازات أثناء السفر في الدعوة إلى الله، أو في المحافل الدعويّة التي يرغب حضورها، واستمراء ذلك سيجعل الدعوة عبارة عن ترقيات خاصّة، ومكاسب دنيويّة، وهو ما سيُضعف الأداء الدعوي؛ لحرص الداعية على المظهر لا الجوهر، والترف يُضعفُ الجهد، بل يجعلُ الشخص

يتطلّب المزيد من مُتع الدنيا؛ بحجّة أنّه في رحلة دعوية، ومن كان كذلك؛ سيضعف خِطابه، ويقلّ نظره، ويتقلّصُ فكره!

ولقد لفت الإمام الشوكاني لفتة نفيسة عند قول الله – تبارك وتعالى – {إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} فقال: (وخصص المترفين تنبيهاً على أن التنعم هو سبب إهمال النظر).

فجدير بالمرتحل دعوياً أن يتهيّأ للزاد الدعوي، ويأخذ ما يُعينه على ذلك؛ دون مُبالغة؛ لهذا كان من المُحتّم نظرياً وفكرياً تهيئة الرواحل الدعويّة من خلال العيش في أجواء تربويّة قبل التصدّر للدعوة؛ فإذا كان قد انعدم في نفس سالك طريق الدعوة العيش في الجو التربوي الشرعي؛ سيتأثّر كثيراً من مغريات الحياة ومُلهياتها؛ فالجانب التربوي ينمي للداعية عدَّة نوازع خيِّرة، من قبيل الإخلاص لله، وهضم الذات، والتقليل من عرض الأنا، والتماس العذر للآخرين، وأجواء الإيثار والتسامح والإخاء، مع ما يمسّها لتُقاسي الصعوبات والمتاعب والتخشُّن والبعد عن الترّفه والتنعُّم؛ فالرحلة الدعويّة ليست رحلة استجمام عائليّة؛ بل خروج من زينة الدنيا وزخرفها إلى دعوة الناس لله والدار الآخرة، ومن أراد أن يدخل في الدعوة؛ فلينظر في سنن الأنبياء ومنهجهم ليعلم كيف اصطفاهم الله، حتّى يكون من المُصطفين عنه، فالله تعالى يقول: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}.

7. شهوة الشهرة، وكثرة الأتباع!

الانصباب إلى الشُّهرة العلنيّة، محرقة في أتون الشهوّة الخفيّة.

من أحبّ الشُّهرة نالته من الناس نُفرة!

حبّ الظهور يقصم الظهور!

إنّ الجاهُ والشهرة، والتصدُّر، والظهور، أمراض أثّرت في غرس بعض الدعاة؛ ففسد زرعهم، لأجل شهوة خفيّة مُندسّة في النفس يُذكي أوارها الإعلام المعاصر؛ وما أسرع تقلّب القلوب، وأضعفها عند ملاقاة الناس؛ فلربما وقع أحدُنا في تطلّب المزيد من المُشتركين في حساباته ولقاءاته، ويتطلّع لعدد المُعجبين، ويقيس نجاحه لأجل ذلك؛ وكثرة من معه ويُتابعه ويُلاحقه، وقد يُغري نفسه أنّ ذلك لأجل الدعوة ونشر الخير؛ ولكنّ نفسه تُغويه وتُضِلُّه وتُزيِّن له سوء عمله، وتنقلب النوايا إلى مطالب دنيويّة أو مكاسب شخصيّة.

إنّ القلوب كالقدور تغلي مراجلها؛ وكم كان مُراد المرء إخبار الآخرين لما يفعله؛ لا لأجل تشجيعهم على الخير؛ بل لإظهار الذات وإبرازها؛ لعلّ الناس يرضون؛ وماذا سينفع ذلك كلّه إن لم يرض الله عن تلك الأعمال؟!

إنّ من أسرار شهرة كثير من أهل الخير؛ صدقهم مع الله وإقبالهم عليه؛ فكتب الله لهم القبول في السماء والأرض؛ ونحسب أنّ من أبرزهم إمام أهل السنّة والجماعة أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – فقد جاء في سيرته رغبة عن الناس ونأياً عن الانخداع بتجمُّعهم عليه، حتّى نقل عنه المروزي أنّه قال:" إني أرجو أن يكون يُدعى لك في الأمصار فقال: يا أبا بكر! إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس".

إنّ أيّ عمل أتقنه المرء ولم يكن هدفه منه سوى (الشُّهرة) و(السُّمعة) و(المفاخرة) أمام الناس وعند المجتمع، قد ينال بُغيته منه، لكن ستنطفئ شعلته بعد زمن قليل، ولا يذكره أحد في حياته، وفي الأغلب أنَّه سيموت ذكره بعد موته.

وكلُّ عمل صالح مُتقن قصد فيه المرء ربَّ العالمين؛ فإنَّ الله تعالى يُيسِّر له من يذكرُ عمله، ولو بعد موته بمئات السنين؛ فتلك الزيادة الربَّانية لعمله في الدنيا، عدا الأجر الذي سيناله الشخص في الآخرة، وتأمَّل قوله تبارك وتعالى : {من كان يريد

حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} .

إنّ مقياس النجاح الدعوي صدق الإخلاص ومطابقة المتابعة لسنّة رسول الله؛ وليس مقاس نجاح الداعية إلى الله كثرة عدد الحاضرين له، أو المادحين له، أو المُتابعين له في حسابات التواصل الاجتماعي؛ وإن كان ذلك بالطبع سيُحفّزه على فعل الخير دوماً، لكنّ المقياس الحقيقي: ماذا فعلت الدعوة بقلبه؟ وهل وجد طعم الراحة وشعر بحلاوة الإيمان وذاق الحياة الطيبة، وعاش الأنس بالله بعد ذلك؟ وهل شعر أنّه بذاته قد تأثّر من دعوته التي يدعو بها إلى الله؟ وهل كانت أعماله الدعويّة الكثيرة التي يقوم بها لأجل الدعوة إلى الله أم الدعوة إلى النفس؟

دونكَ هذا الموقف العظيم الذي يتحدّث فيه الإمام عبدالرحمن بن مهدي؛ إذ يقول: كنت أجلس يوم الجمعة في مسجد الجامع فيجلس إلي الناس فإذا كانوا كثيراً فرحت وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور فقال : هذا مجلس سوء لاتعد إليه قال فما عدت إليه! فما أجمل تعاهده لقلبه، والتزامه بنصح شيخه.

صحّ في الحديث عند أحمد والحاكم عن أبى الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما طلعت الشمس قط إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس: هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى".

وكم في القلّة كفاية، وكم في الكثرة لهو حسرة!

وحري بكل داعية إلى الله أن يقف مع سورة التكاثر؛ حيث قال: {ألهاكم التكاثر * حتّى زرتم المقابر} فمن كثرة الانشغال بالتكاثر قلّ العمل؛ وأتى الأجل؛ فحانت ساعة الدفن في المقابر!

لهذا يُنبّه الإمام ابن القيم على خطورة الانشغال بالكثرة فيقول: "التكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً أو تفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه؛ فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابهما".

إنّ كثرة الناس حول الداعية الصادق؛ تدعوه للمزيد من تجريد الإخلاص لله؛ ومن ثمّ إحسان العمل وإتقانه أمام الناس؛ ولا يغتبط بالكثرة؛ فكم من داعية لم يجتمع حوله إلاّ قلّة؛ تراه قد سَبَقَ من اجتمعت حوله الجماهير؛ فالله مُطّلع على النفوس؛ ويعلم تفاضل ما في القلوب؛ وإذا كان يقع بين الأفاضل ممّن يسبق ذكرهم عملهم؛ فقد يقع لبعضهم قلّة في المعين والناصر؛ إمّا لفساد قلوب أولئك المدعوين؛ حيث لم يُرسل لهم إلاّ الداعية الصّبور على أذاهم؛ وإمّا لحكمة يُريدها الله تعالى في عدم هدايتهم، ولهذا نلحظ أن نبيّ الله نوحاً عليه الصلاة والسلام، كان من أولي العزم من الرُّسل؛ وقال تعالى عن دعوته وأتباعه: {وما آمن معه إلاّ قليل} فيما أنّ القرية التي أرسل لها نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام؛ آمنت بعد أن ظنّ استحالة إيمانهم، وقد كانوا كثرة جداً في ذلك الوقت؛ فقد قال تعالى : {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتّعناهم إلى حين}.

إنّ المؤشّر الاستفادة من ذلك أنّ من هداهم الله تعالى على يد الداعية لا يعني أنّه أفضل من داعية لم يهدِ الله على يديه إلاّ قلّة؛ أو أنّ من هُدي على يده قلّة لم ينجح في دعوته؛ فالله تعالى هو المُطّلع على القلوب؛ ويعلم من هو الأفضل في القُربِ إليه والتزام طاعته؛ وإن كانوا جميعاً من أهل الفضل والمنازل العالية، ومن جميل ما يُمكن ذكره في هذا الموطن ما قاله الإمام ابن تيمية :"فإن الأعمال لا تتفاضل

بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل" مجموع الفتاوى [٢٥/٢٨٢].

8. انكفاء عن واقع الناس!

بعد إخفاق كثير من الثورات العربيّة، صارت هنالك حالة انطواء عن مخالطة الناس ودعوتهم، في كثير من الدول العربيّة؛ وصار عدد من الدعاة المهتمين علمياً يكتفون بالجلوس فيما بينهم باجتماعات ومجموعات خاصّة؛ وينصرفون عن معايشة الهمّ العام الجماهيري؛ وتوجيهه بحجّة الانشغال بالدعوة الالكترونية؛ ولربّما تأثراً من الأحوال السياسيّة والظروف المتاخمة لها..

وعلى كلّ حال فالاكتفاء بالدعوة الالكترونية، والإعلام الجديد على أهميّته؛ ليست من طموحات العمل الدعوي المُعاصر؛ فلئن كانت الدعوة في الواقع الافتراضي مهمّة؛ فإنّ ترتيب مجالسة الناس ومخالطتهم والتأثير عليهم قدر الإمكان وبما يُحقّقُ حماية الحضور الدعوي من بذل الأسباب النافعة، أفضل من مُجرّد الاكتفاء بهذه الوسائل التقنيّة، التي قد تكون وسائل تخديريّة للداعيّة فيكتفي بها عن مخالطة الناس، ودعوتهم؛ وخاصّة أنّ هذه الوسائل لا تنقل سوى المكتوب أو المرئي؛ مع أنّ هنالك ما هو أعمق أثراً؛ من تلاقي الأرواح ومجالسة الناس بعضهم بعضاً بأجسادهم.

إنّ الإدراك للحراك الدعوي بين مجتمعات الناس ومنتدياتهم على أرض الواقع؛ مؤثّر للغاية؛ ويفوق ما يتصوره بعض الدعاة من تقانات التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائيّة فالتوسُّع الدعوي بسببها سيصل للكم الأكثري من مُسْتَقْبِلِيْ الخطاب الدعوي؛ لكنّ الكيف الدعوي والكُنه الذي يستشعر حقيقة التأثير على القاعدة الدعويّة ويفهم معانيها؛ لن يصل إلا بالتواصل الروحي الحقيقي فتأثيره ونتائجه أعظم من

تأثيرات التواصل الاجتماعي، فذبذبات النفس وتلقائيّة اللقاء؛ والجانب الحي الروحي فيما بين الطرفين، سيؤثر تأثيراً أكثر من التواصل الرمزي الافتراضي؛ فكيف إذا اجتمع مع العمل الدعوي عمل تربوي وتعليمي..؟!

ولا يغيب عن الذهن كذلك أنّ نمذجة مواقع التواصل الاجتماعي وأصل تأسيسها لإبراز ما يخطر في ذهن الشخص ليتواصل مع الآخرين شعورياً واجتماعياً؛ أكثر من كون الناس تستقبل أو تستفيد مِمّا فيها؛ وصار مدى الكم الهائل من المنشورات يجعلهم يعيشون سُرعة العرض لا الأناة في التلقي والتقبل؛ وهذا بخلاف الدعوة الفرديّة، أو الدعوية التربوية، أو الدعوة الجماهيريّة التي يلتقي فيها الناس مع بعضهم، ويستفيدون في أجواء مُخصّصة لذلك بعيداً عن المُلهيات الأخرى.

إنّ مشهد الدعوة الرسالي الذي قام به الأنبياء، وما كان عليه الجيل الأول والرعيل الذي قام بنشر رسالة النُّبوّة من الصحابة والتابعين؛ يجمع بين العزلة والخلطة؛ فهم يخلون مع أنفسهم ويعتزلون الخلق لتأديب النفس وتهذيبها؛ كما يقول عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – :"خُذوا بِحظّكم من العُزلة" [رواه وكيع في الزهد] إلاّ أنّهم يعلمون أنّ دين الإسلام دين حَرَكِيٌّ عملي يكره السكون والكمون والانطواء والانزواء، فكما فهم الصحابة الأخذ بالعزلة أحياناً؛ فقد فهموا ضرورة الاختلاط بالناس لتعليمهم ودعوتهم وإعانتهم مع التوقي والتحفظ أثناء مخالطتهم؛ كما كان يقول ابن مسعود رضي الله عنه : "خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تَكْلِمُوه".

9. كسل العمل وتقاعس النفس

يُختار بعضهم للعمل الدعوي فضل الوقت لا أفضله؛ مُكثرين من الأمل تقديماً على العمل؛ مُسوّغين الكسل لسوء المحل الدعوي؛ وانتظار الفرج، وعقليّة الترقب

والانتظار لجديد قادم تنفرج به الأمور بعد مصاعب الظروف التي تعيشها الأمّة المسلمة حالياً، حتّى أنّ بعضهم يُصرّح أنّه قد يأس من الإصلاح؛ وأصيب بإحباط بعد الظروف التي عاشتها الأمّة؛ فانكفأ على مشاريعه الخاصّة!

غير أنّ حركة النفس الدعوية الجادة ترى أفضل واقع لها في مجال الدعوة؛ هو واقع العوائق والعقابيل التي تُواجه الدعوة إلى الله؛ فمن الأزمات يحسن التخطيط للعمل القائم على صدق المنهج والصبر على الطريق ودوام الثبات بهمّة ذات إقدام وحركة أقدام؛ فالنفس العاجزة المترددة لا تصنع للواقع الدعوي شيئاً، والنفس الساكنة الكامنة لن تُغيّر من سلبيات الحاضر؛ بل ستضيف له سلبيات أخرى بدعوة ذات فكر ساكن قائم على التوهق لا التوثق!!

وآخرون يُحبّون الدعوة لكنّهم يعدُّون العمل للدين شيئاً تحسينياً تكميلياً على حسب الراحة والفراغ؛ فإن حصل ذلك قاموا به؛ وهذا يحصل كثيراً مِمّن يمتلك بعض الأدوار الدعويّة التوجيّهية المؤثّرة؛ فتراه لا يتحرّك للعمل الدعوي إلاّ بدفع ورفع ونصائح من حوله لبذل النفع؛ فروح المُبادرة لديه مفقودة؛ ولربّما حصلت له مواقف أثّرت على شخصيّته أثناء دعوته فانطفأ سراجه، وانكفأ على نفسه.

ولربّما لا يتحرّك إلا من خلال الجماعة أو الحزب أو الحركة التي ينضوي تحت خافق رايتها؛ فإن تحرّكت تحرّك وبحرقة؛ وإن سكتوا سكت ونظر لغيره أنّ عطاءه لا يُثمر؛ وبرّر الجلوس والسكوت والضعف؛ مع أنّ بإمكانه العمل الدعوي الفردي؛ وتنمية التربيّة الشبابيّة بعدّة صور وأشكال؛ فطرق الدعوة وأشكالها لا تنتهي حتّى الموت؛ بل الداعية يحسن به العمل حتّى لما بعد الموت لمن أحسن التخطيط في العمل لآخرته وقدّم مشروعاً ناجحاً لدنيا الناس، وفيما هو مع الأجداث الميتة قد بَلت عظامه تتساقط بحار الحسنات من أعماله الصالحة تصيب روحه بِبِلالِها!

إنّ منطلق العمل الدعوي القيام بروح المبادرة فهو عامل التغيير، وهو الذي يُكسب الداعية الفرصة؛ حتّى لا يكون الواقع الذي يُعايشه يتعامل معه بالانفعال أو ردود الأفعال؛ أو يكون واقعاً مفعولاً به من الحركات الدعويّة الهدّامة؛ بدلاً من أن يكون هو به فاعلاً؛ وهذا يقتضي أن يزرع الداعية روح الفأل في داخله، ويُثمّرها مع الأيام؛ ويبتعد عن كل ما يدعو إلى التشاؤم، بل يأخذ قبساً من روح المُبادرة والإرادة والعزيمة من قصص الأنبياء والمرسلين؛ بل من قصص الصالحين المُناصرين لدين ربّ العالمين؛ كما في قوله تعالى: {وجاء رجلُ من أقصى المدينة يسعى} فالسعي فيه معنى المسارعة والمسابقة؛ ومن يُريد القيام بالدعوة فهو من أهل الخير؛ فتراهم سبّاقون لغيرهم في مسارعتهم كما قال تعالى:{أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}، ومن تطّلب من الناس تغييراً من الحال وهو بذاته لم يتغيّر دعوياً بأي حال فكيف سينصلح الحال؛ لهذا فإن عمل الآخرون عملاً باطلاً؛ فليُظهر لهم الداعية العمل الصالح؛ ويصدح بذلك؛ ولو خالفوا عمله؛ وسوف تكون نتائج ذلك مختلفة عمّا يتوقعه الناس: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سوف تعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيب}.

10. تقزيم التفكير في العمل الجماعي

من المفاهيم الدعوية الصحيحة القول بـ:(ضرورة العمل الجماعي) إلاَّ أنَّ قصر هذا المفهوم على كونِه داخل جماعة معروفة أو حزب إسلامي مُعيَّن فحسب، واعتبار ما عداه من عمل جماعي لا ينتمي للحركات أو الجماعات الإسلاميَّة الكبرى وتصويره بأنَّه عمل مصيره الحرث في البحر، أو الكتابة في الهواء، فهذا المفهوم فيه تضييق بل تسطيح لمفهوم العمل الجماعي.

مفهوم العمل الجماعي يكمن في اجتماع عدد من المُصلحين على غاية شريفة لتحقيقها في أرض الواقع، التزاماً بقوله تعالى:{وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}، وكل من كان كذلك فإنَّه يقوم بالعمل الجماعي.

وقد يكون العمل الجماعي داخل مؤسسة أو مركز أو جمعية أو إذاعة أو قناة فضائية أو مجلة أو بنك أو صحيفة أو منظمّة وغيرها، فكل ذلك عمل جماعي فضيل، فليس من شرط العمل الجماعي دوام كونه في منظومة حزبية معروفة منذ زمن، فاجتماع عدد من أهل الفضل والدعوة على الخير = عمل جماعي؛ قد يؤتي ثماراً يانعة.

لقد تعاظمَ دورُ الأجهزة الأمنيّة الغاشمة، وصارت تُحاكم كثيراً من العاملين للإسلام بجماعاتهم وأحزابهم؛ وهذا يستدعي تغيير مسار التحرُّك في العمل الدعوي، فالحزب الدعوي أو الجماعة الدعوية ليست في النهاية قبيلة عائليّة يستحيل انفكاك الشخص عنها لأنّه يجحد أصله؛ بل تيكَ إطارات تجمع وتحوي عموم المنضوين فيها؛ وهي وسيلة لغاية الدعوة إلى الله تعالى؛ فإذا سِيمت بخطّة خسف؛ فليس من واجب العمل للدين البقاء تحت ذلك المسمّى الذي عُرفت به؛ بل من الواجب دراسة التجربة وتعديلها وتصحيحها، ودراسة الأخطاء الفكرية والشرعيّة التي وقعت بها؛ فالله تعالى لم يتعبّدنا بطريقة أو باسمِ جماعة للعمل لهذا الدين بل طلب من عباده أن يعملوا بما يُحقق المصالح ويزيل المفاسد.

11. يزنس الدعوة !

في عصر سُعار التسوُّق، والإقبال على الاستهلاك، وتغوُّل الرأسماليّة في تفاصيل كثير من حياتنا؛ دخلت ساحة العمل الديني؛ حتّى أنّ الكاتب الفرنسي "باتريك ميشيل" جعلها علاقة استهلاكية رأسمالية بالدين!

وبِحقٍ فالأوساط الدعوية بحاجة لوقفة مراجعة جادة فقد دبّت فيها شيء من هذه التنميطات، حتّى صارت الدعوة لدي بعضهم عبارة عن مشروعات شخصيّة، عرض وطلب، وبيع وشراء، وتجارة واستثمار، وتصير الكلمة الدعويّة ممتزجة بالطعم المادي، وقد يتربّح منها بعضهم مبالغ طائلة؛ تجعل الفقير منهم بعد سنين غنياً !

ويَاْمَا ضعفت نفوس كثير من الخلق أمام الفلوس إلاّ من عصمه الله؛ فتكون مهنة تجلب لهم الكثير من الربح والمال الوفير، ولو كان هذا تفرغاً منه لتقديم البرامج النافعة؛ وبقدر مُحدد يكفيه حاجته؛ لاختلف الحال إن على الموقف الفقهي أو المستوى العُرفي الدعوي.

ومن تتبع سير الأنبياء والمرسلين وجد أنّ عدم سؤال الأجر، يقرونها مع حثّ المدعوين على عبادة الله وحدة؛ وعدم سؤالهم الأجر منهم؛ لكي لا يشعر المدعو أنّ الداعية يتكسّب من خلف دعوته!

لهذا يقول تعالى: {أم تسألهم أجراً فهم من مغرمٍ مُثقلون} والآية استفهام بمعنى النفي؛ فمحمدٌ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يسأل من يدعوهم إلى الله ويُبلّغهم رسالته الأجر؛ لأنّه لو فعل ذلك سيُعرضون عن دعوته؛ فهم من أي شيء يتبرّمون ولا يرغبون أن يتحمّلوا أي تكلفة لسماع صوت الدعوة.

وهذا مبدأ يحسن بالدعاة العلماء مراعاته؛ فخطوط الفتوى مدفوعة الأجر، ونشر آيات وأحاديث وأدعية بصوت الداعية بمقابل مادي، واختلاف الدعاة مع بعض القنوات حين يعلمون أنّ آخر يأخذ أكثر منهم، أو حصريّة دعوة الداعية في قناة لقاء مقابل مادي، ورفض بعضهم تلبية الدعوة لعدم جمال المكان وفخامته، أو إعراضه عن المُحاضرة إن علم قلّة الحضور، أو مطالبته بأفضل خدمات السفر من حيث الدرجة الأولى، والفندق الأفضل، وغيرها من الأشياء...

هذه الأشياء وغيرها؛ ستؤثر قطعاً في قبول الناس لدعوة الدعاة؛ خاصّة إذا ارتبطت الدعوة بمصالح الداعية الشخصيّة؛ فسيؤثر على سمعته؛ فالتعفّف من أموال الناس = مبدأ الدعوة الإسلاميّة؛ وهو ديدن الأنبياء والرسل، وهو الذي جعل دعوتهم تنتشر؛ بل إنّ الدعوة انتشرت في كثير من مصاقع البلاد؛ بسبب حسن خلق التجار، وبذلهم الخير من أموالهم للناس؛ لا طلبها منهم.

إنّ تملُّك قلوب الناس يكون بالزهد في دنياهم؛ وما أجمل الحكمة النبوية التي قالها رسول الله جاءت في حديث حسن الإسناد:{ ازهد في الدنيا يُحبُّك الله وازهد فيما أيدي الناس يُحبّك الناس} فإذا شعر الحضور أنّ الداعية يقوم بتسليع الدين ويتكسّب من الأموال حتّى تتكسّد عنده؛ سيُضعف ثقتهم به؛ بل يعدمها إن شعروا أنّه يتكسّب ويجمع ثروة من دعوته.

ومن أراد العمل في الدعوة فقد دخل في أعظم سوق تجاري؛ يربح المرء منه مالا يُعدُّ ولا يُحصى من الأجور بالقراريط؛ وقد ورد عند الدرامي وابن أبي شيبة بسند صحيح أنّ ابن مسعود – رضي الله عنه – قال:" كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَلْبَسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً ؟ فَإِنْ غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ " قَالُوا : مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ قَالَ : " إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ".

وقد أدرك العلماء الربّانيون ذلك تربوياً وتطبيقياً فقد قال فُضيل بن عياض "لأَن آكل الدُّنيا بِالطَّبل و المزمار أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَنْ آكُلُهَا بِديني".

وأدركوه فقهياً فجمهور أهل العلم على عدم جواز الاستئجار على القُرب الدينيّة؛ ولهذا يقول ابن تيمية :"والفقهاء متفقون على الفرق بين الاستئجار على القرب وبين

رزق أهلها، فرزق المقاتلة والقضاة والمؤذنين والأئمة جائز بلا نزاع وأما الاستئجار فلا يجوز عند أكثرهم" [مجموع الفتاوى ٣٠-٢٠٦].

وما دامت الدعوة والفتيا من القُرَبِ فإنّها مناصب ذات تبليغ عن الله ورسوله، فلا تجوز المعاوضة عليها.

وقد يغفل بعض الدعاة إبّان دعوتهم في أجواء التكسُّب المادي، عن سريان الضعف في عرض مبادئ الدين وعقيدته فيضعفون عن مواقف الثبات والصلابة في الدعاية إلى الدين؛ والتركيز على عرض الدين كقِيَم ومُثُل وأفكار؛ يُمكن أن يأخذ المستمع منها ما يُريد بحسب بُغيته ليُطبّق ما هو مقتنع به لا بما يجب عليه أن ينضبط به ويستسلم له؛ مع الترويج الدائم بين كل فقرة وأخرى بعبارات الوسطية، والتسامح، والتيسير، والحريّة؛ والإفادة من الحالة الفردانيّة في عمليّة نصرة الدين؛ فإذا أردنا النصر فلنصلي الفجر؛ وإذا أردنا مقاومة المحتل فلنصم؛ وإذا أردنا أن نتعامل مع مآسي المسلمين فليس إلاّ الدعاء... !

وليس المراد من ذلك التقليل من الاهتمام بالصلاة والصيام والدعاء؛ لكنّ عرض منظومة الإسلام؛ كحالة شعائريّة مظهريّة تعبُّديّة؛ بعيداً عن الحديث الجاد للنهوض بالأمّة بسائر أنواع النهوض الجماعي والتغيير التربوي والإصلاح السياسي والمقاومة الجهادية؛ كل ذلك سيُحدث حالة من التدين الخاص مِمّا سيتيح المجال لتمدد الأفكار العلمانية...!!

قال ابن القيم رحمه الله : " كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها, فلا بد أن يقول علي الله غير الحق في فتواه وحكمه فى خبره, وإلزامه, لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس, ولا سيما أهل الرياسة, والذين يتبعون الشبهات, فأنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق, ودفعه كثيرا فإذا كان العالم

والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات, لم يتم لما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق, ولا سيما إذا قامت له شبهة, فتتفق الشبهة والشهوة, ويثور الهوى, فيخفى الصواب, وينطمس وجه الحق, وان كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبة فيه أقدم على مخالفته, وقال لي مخرج بالتوبة وفى هؤلاء وأشباههم قال: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات).

12. قلّة اكتفاء الدعاة معيشياً !

هنالك عدد من أهل الدعوة الذي جمع الله لهم شيئاً من التأصيل العلمي وسداد المنهج وحُسن التأثير؛ لكنّهم لا يستطيعون القيام بالعبء الدعوي لقلّة ذات اليد؛ مِمّا يستدعي منهم الإقبال على طلب الرزق للاكتفاء الذاتي مالياً ومعيشياً؛ وبما أنَّ الدعوة العلميّة بحاجة ماسَّة لنوع من التفرغ؛ للابتعاد عن التشتت الذهني والشّعث النفسي؛ فكان من الواجب على المُحسنين الصالحين؛ أن يُفرّغوا الدعاة للعمل الدعوي، أو أن يندرجوا في مؤسسات تقومُ برعاية مشروعات دعوية؛ ويُساهم من خلالها الداعية بالعمل مع راتبٍ يكفيه ذاتياً عن القيام بأعمال تستغرق وقته كلّه.

فكم من أعمال دنيويّة استغرقت أوقات الدعاة؛ هذا مع قلّتهم في واقعهم؛ وقد يكون مقابلها ضئيلاً مما يتطّلب منه أن يعمل عملاً آخر للاستقلال المادي؛ وبهذه الحالة لن يتبقى للدعوة سوى فضل الوقت؛ ولا يُكلّف الله نفساً إلا وسعها، وسعي الأثرياء في سداد عيش الدعاة بما يُمكّنهم من العمل الدعوي وحسن اختيار الدعاة الصادقين في ذلك، وشهود مشروعاتهم لهم بما يقومون به؛ خيرُ يُقدّمه الداعية والثري لخدمة الأمّة وليس لخدمة واحدٍ منهما الآخر؛ ففي ذلك القيام ببناء الأمم.

13.

فساد التربية الدعوية بالوجهة السياسيّة!

تحكيم الشريعة في واقع المسلمين عقيدة؛ ولا يتمُّ ذلك إلاّ بواسطة إمامة المسلمين بسلطة ذات سياسة شرعيّة، فعلى المسلمين القيام بكل ما من شأنه إعادة السيادة للدولة الإسلامية المُستقلة بقراراتها؛ حتّى يكون الدين كلّه لله.

لكنّ التربية الدعوية التي تُؤسس هدفاً في عقل المُتربي يدورُ غالب كلامهم عليه، وهو قصد الوصول إلى البرلمان أو الحكم السياسي والسعي إلى الانتخابات؛ ستنتهي لحركة سياسية فحسب، وتتقاصر بها الهمم لاحقاً في الدعوة والعلم والتربية الإيمانيّة.

وطالما وجدنا كثرة منهم قد استغرقت مجالسهم الأحاديث السياسيّة؛ فبدلاً من التوازن في ذلك؛ صارت متابعة الأخبار السياسيّة؛ تأخذ نصيباً كبيراً من وقتهم؛ ويؤثّرُ ذلك أكثر حينما يدخل عدد من الدعاة المؤثّرين على الساحة الدعويّة في سلك العمل السياسي المُعاصر؛ وليس لديهم خبرة سياسية كافية، ومعرفة بدهاليزها وأسرارها؛ فترى عملهم الدعوي يخفت كثيراً؛ ولا يكون هنالك أداء حقيقي.

والقصدُ هنا الدعوة إلى التمايز بين العمل الدعوي والعمل السياسي؛ لكي لا يؤثّر على الدعوة وكأنّها دعوة تسعى لمناصب سياسية فحسب؛ ولا يأخذ ذلك العمل من وقت الدعاة المؤثّرين، أو أن يتحدّثوا في أشياء لا يعرفون طبائعها ونظامها وليسوا من أهل تخصصها، وحفظاً للمُكتسبات الدعويّة حتّى إن حصلت هنالك ضربة أمنية قاصمة لا يُودع أغلبهم السجون؛ وتخلو الساحة للجهال والمتملقين.

نعم..! من الضرورات الدعوية أن يُشارك العالِمُ والداعيةُ هموم المسلمين، ويتحدَّث عن قضاياهم الاجتماعية والسياسيَّة؛ وإن كان لديه عمق في التحليل السياسي، والبعد الاستشرافي لمستقبل الأمَّة، فعليه ألاَّ يبخل بذلك.

لكنّ مجال أهل العلم والدعوة ليس بخوض المعترك السياسي بأنفسهم، والقبول بالمناصب السياسيَّة، خصوصاً مع قلّة العلماء والدعاة في كثير من الدول العربيّة

والإسلامية فبلادهم بحاجة إلى علمهم ودعوتهم، وقد تتأثَّر الدعوة بوجودهم في تلك المناصب السياسيَّة، وتتقزَّم أثر الدعوة، ويقل نشر العلم!

فليخض العمل السياسي بعض طلابهم النجباء ممن لديهم خلفية دينية ومعرفة سياسية، وليستفيدوا من رأي العلماء الذين جمعوا بين المطالعة الشرعية والفكر السياسي.

لكنَّ تفرُّغ العلماء والدعاة للدعوة والتعليم والتوجيه وإفتاء الناس، ومعايشة هموم الناس بكل تجلياتها أفضل من دخولهم لمستنقع السياسة الذي لا يُبقي ولا يذر من وقتهم شيئاً للدعوة والتعليم؛ وحديثُ كثير منهم عن الواقع السياسي وترك الكثير من المواقع التي تحتاج لكلمة ومعالجة فيه تجنٍ على مستقبل الأمّة؛ والسياسة من الدين لكنّها ليست كُلّ الدين؛ فهنالك أشياءُ كثيرة تحتاجها الأمّة المسلمة علماً وتعليماً وتربية ورباطاً وجهاداً في سبيل الله؛ ومعها التوعية السياسيّة؛ يحصل بذلك التوازن والتكامل والشموليّة.

14. ضعف الكوادر الإدارية

من مشكلاتنا الدعويَّة التي نُعاني منها: (ضعف الكوادر الإداريَّة) وقلَّة القدرة على القيام بأعمال دعوية وتربوية قد خُطِّط لها تخطيطاً جيداً ونافعاً ومستمراً بعيداً عن الفوضى والعشوائيَّة...

والعمل الدعوي الذي يُراد منه التوسع والانتشار في مجتمعاتنا، مع المثابرة والحرص والمراقبة والمحاسبة والمتابعة الإدارية...لابدَّ أن يقوم به أناس من أهل الفضل والاستقامة؛ لديهم قدرة إدارية؛ لا أن يقوم بذلك المشايخ والدعاة أنفسهم؛ مما يشغلهم عن حمل الهمّ الدعوي؛ ويُفرّق التفكير؛ وقد تحصل أخطاء إدارية لقلّة الخبرة؛

وضعف الكفاءة؛ والأصل أنّ من يقوم بذلك يكون له صلة مع أهل العلم والدعوة؛ لاستشارتهم ومعرفة خُططهم الدعويّة.

وهنالك مجالات مفيدة؛ لو أقبل عليها كثير من العاملين دعوياً لأعانوا الدعاة من أهل العلم على تحقيق الكثير من مشروعاتهم؛ بعمل أقل، وعطاء أكثر، من قبيل (إدارة المؤسسات) أو(تخطيط وتنمية)؛ ويُمكن بعد ذلك الإفادة من الإدارة الدعوية في مقاومة حملات الغزاة والطغاة والغواة الذين يُفسدون واقع المسلمين؛ فبحسن الإدارة الدعويّة يعظم دور الإرادة النفسيّة؛ وحين ضعفت الأمّة وتغوّل الباطنية قام الوزير نظام الملك؛ بتأسيس مدارس شافعية للتعليم الشرعي، حتى قال الذهبي: هو أول من بنى المدارس في الإسلام؛ وكان لهذه المدارس أثر بارز في التصدي للأعداء؛ والتعاون على نشر الفضيلة؛ بعمل مؤسسي إداري كتبت عنه كتب السّير والتراجم شيئاً مُفيداً.

وبكلمة ختاميّة

فالساحة الدعويّة بحاجة دائمة لتقويم التجربة الدعوية

فعوامل نجاح الداعية الصادق؛ أن يقوم بجردٍ لما قام به من أعمال دعوية؛ وإحصاءٍ للمُهمّات التي قام بها؛ ودراسة جوانب النجاح، ونقاط الإخفاق، وسؤال الصادقين ممن هم حوله؛ واستشارة من هو أعلم منه وأسبق بالعمل الدعوي؛ وكتابة خُطط المستقبل لأداء دعوي أفضل.

وكما أسلفنا سابقاً فإنّ كثيراً من الناس يقيسون مُعدّل النجاح على كثرة المُريدين والأتباع، ومستوى الإخفاق على قلّة المستفيدين؛ وهذه المسألة قد تؤثر على نفسيّة الداعية؛ وقد يكون لها حظُ من النظر الصحيح؛ لكنّها ليست الأداة المعياريّة المقياسيّة لنجاح العمل أو فشله.

بل قد يكون قلّة الحضور سبب لمراجعة الداعية لنيّته؛ وطرحه، ومكان دعوته، وأساليبها، وقلّة خبرته، وسوء تنظيمه وتخطيطه، وعدم ثباته على منهجية الدعوة، ومزاجيته أحياناً، وكونه قُدورة في فعله؛ مُحاولاً تطبيق ما يتكلّم به، وقد كان عبد الواحد بن زياد يقول: "ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه وإذا نهاهم عن شيء كان أبعدهم منه".

وعلى الداعية بعد مراجعته لعمله، وتقويمه لأداءه؛ أن يتفطّن لشيء هو من تمام علمه بالخلق دعوياً إن قُدّر لأكثرهم الضلال؛ فلا يعجب من عدم هدايتهم، ولا يحزن كثيراً، ولتدبر قوله تعالى: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)؛ فليُحاول أن يجعل حرصه على دعوتهم موزوناً بميزان الاعتدال حتّى لا يتجاوز حرصه عليهم؛ ليصل لحد الإكراه لهم على قبول الهداية، فإنّ الله هادي القلوب ومُوفّقها ودليل حيرتها، وقد جاء في كتاب الله تعالى: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}.

إنّ المشروع الدعوي مشروع أمّة؛ لا مشروع دولة؛ ولا جماعة، ولا أفراد؛ وكلّ من قام بالمساهمة فيه ولو بقدر يسير بنيّة خالصة وعمل صالح؛ فلن يُخيّب الله ظنّه بحسنات في آخرته؛ وبركاته في دنياه؛ فليُكثر من الدعاء بالقبول من الله تعالى.

والمُرتجى أنّ يزرع الدعاة إلى الله في قلوب الناس الود والحب؛ فحين يقع في مساقط قلوب الناس حُبّهم، تراهم يقتنعون بهم ويحترمون أقوالهم، فضلاً عن نُصرتهم، والدفاع عنهم، وتقديم النصح لا الفضح؛ ويتعاونون وإيّاهم على نشر الخير، ودفع الضر؛ فيكونون من البقيّة الذين امتدحهم الله تعالى في سورة هود؛ إذ يقول سبحانه : {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}(هود116).